الفصل الثامن والعشرون

الشكر

من أهم وأعلى وأوجب المنازل الإيمانية منزلة الشكر، بل إن جميع مقامات الإيمان تندرج فيها حتى المحبة والرضا والتوكل وغير ذلك، فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها، وتالله ليس لخواص أولياء الله وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى، إن الشكر نصف الإيمان، وأساس المزيد، وسبيل حراسة النعم وحفظها وزيادتها، وإن أقل ما يجب على العبد تجاه هذه النعم المتواترة المتكاثرة أن يشكر ربه ويحمده جَلَّجَلَالُهُ، وإذا رأيت أن إيمانك لا يزداد فارجع إلى الشكر وراجع حالك فيه فسوف تجد تقصيرًا، فَالْهَجْ حينئذٍ بحمد الله وشكره تزدد إيمانًا.

حقيقة الشكر

يقول ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشكر: عرفان الإحسان ونشره وهو مأخوذ من قولك: شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه، والشكران خلاف النكران[(١)].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل الشكر في وضع اللسان ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بَيِّنًا، يقال: شكرت الدابة تشكر شكرًا على وَزْنِ سمنت تسمن سِمَنًا إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف، وفي صحيح مسلم: «**حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم**»[(٢)]، أي لتسمن من كثرة ما تأكل منها، وكذلك حقيقة الشكر في العبودية هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة[(٣)].

---

(١) «لسان العرب» (٤/ ٢٣٠٥).

(٢) رواه مسلم برقم [٢٩٣٦]، والمقصود لحوم يأجوج ومأجوج بعد هلاكهم.

(٣) «تهذيب المدارج» ص [٣٨٤].

قواعد الشكر

الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها فمتى عدم منها واحدة؛ اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحدِّه فكلامه إليها يرجع وعليها يدور فقيل: حدُّه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلًا للنعمة(١).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورًا إلا بمجموعها أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني: الثناء عليه بها، والثالث: الاستعانة بها على مرضاته(٢).

فضائل الشكر

مما سبق يتبين أن الشكر ينتظم الاعتراف بالنعمة باطنًا والتحدث بها ظاهرًا واستعمالها في شكر المنعم، ولهذا الشكر فضائل عظيمة تحث عليه وتدفع إليه وتدعو إلى تحقيقه واستدامته ومنها:

أولًا - أمر الله به ونهى عن ضده:

قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٢]، فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح

(١) المصدر السابق باختصار [٣٨٤-٣٨٥].

(٢) «عده الصابرين» [١٨٨-١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله لم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة(١).

ثانيًا- الشكر أساس المزيد:

النعم تزداد وتكثر وتتوالى وتعظم على العبد بقدر شكره لربه؛ فمن أراد زيادة النعم فليكثر من الشكر وليلهج به، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها وقوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها قوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرهم(٢).

ثالثًا- الشكر سبيل النجاة:

لقد قرن الله سبحانه الشكر بالإيمان وبين سبحانه أنه لا غرض له في عذاب الخلق إذا شكروه وآمنوا، فقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وأخبر ربنا عَزَّوَجَلَّ أنه أنجى الشاكرين المؤمنين وأهلك الظالمين الكافرين من قوم لوط، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٣-٣٥]،

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» [٧٩].

(٢) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» [٦٩٥].

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي إنعامًا منا وهو علة لـ﴿ نجينا ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ أي فأطاع ربه وانتهى إلى أمره ونهيه، والشكر صرف العبد جميع ما أنعم عليه إلى ما خلق لأجله[١].

رابعًا- الشكر مرضاة الله وسبب لمحبته:

أخبر الله العليم الحكيم سبحانه أنه يرضى لعباده الشكر، ويحبه لهم ومنهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]، وإذا حمد العبد ربه بعد طعامه وشرابه فإن الله تعالى يحبه ويرضى عنه، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»[٢].

كان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، في مقابلة شكره بالحمد.

إن المؤمن يعيش حياته بين نعمة ومحنة، والواجب عند السراء والنعم الشكر، والواجب عند الضراء والمحن الصبر، ومن كان كذلك فإنه المؤمن حقًا وأمره كله خير له، فعن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[٣].

خامسًا- الشكر حال أنبياء الله وأقرب الخلق إليه:

أولئك الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله ليكونوا قدوة للعالمين وأسوة للسائرين المهتدين، قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، كان هؤلاء

---

(١) «تفسير القاسمي» (٨/ ٥٥١) ط دار الحديث.

(٢) رواه مسلم برقم [٢٧٣٤].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٩٩٩].

الأنبياء أعظم الناس شكرًا لله ولزامًا على من أراد الاهتداء بهم أن يكثر من شكر ربه عَزَّوَجَلَّ قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]، وقال الله تعالى عن نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]، وقال الله عن سليمان صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٨-١٩].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، وقال نبيُّه سليمان: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم، وعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره، وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله في الإجابة: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقوله في الرزق: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وفي التوبة: ﴿ وَيَتُوبُ

ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة: ١٥]، وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا حيث ذكر قوله: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجلّ المقامات وأعلاها؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فهذه غاية الخلق، وغاية الأمر فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣][(١)].

معنى الحمد والفرق بينه وبين الشكر

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾: الشكر لله خالصًا دون سائر ما يعبد من دونه ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذَّاهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولًا وآخرًا، وقال: «الحمد لله» ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا الحمد لله وقد قيل: إن القائل «الحمد لله» ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقوله «الشكر لله» ثناء عليه بنعمه وأياديه[(٢)].

---

(١) «عدة الصابرين» باختصار [١٥١-١٥٤] ط دار الريان.

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ١٢٧)، ص [١٣٥].

ويقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقع عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية(١).

قلت: ومعنى هذا أن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، ولكنه لا يكون إلا في مقابلة إحسان فيكون الشكر على هذا الإحسان، أما الحمد فيكون بالقلب واللسان فقط ولكنه يكون في مقابلة إحسان ويكون في عدم وجود الإحسان فالحمد أعم من هذه الناحية والله تعالى أعلم.

فضائل الحمد

للحمد فضائل كثيرة جدًا في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هذه الفضائل:

أولًا - الله يحب الحمد:

ربنا عَزَّوَجَلَّ حميد يحب الحمد، ويحب من يحمده، ولقد حمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون، والحمد: هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له.

عن الأسود بن سريع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنت شاعرًا فأتيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: يا رسول الله إني مدحت ربي بمحامد قال: «**أما إن ربك يحب الحمد**»(٢).

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من شيء أحب إلى الله من الحمد**»(٣).

وكما أنه سبحانه يحب أن يُعبد فإنه يحب أن يُمَجَّد وَيُحْمَدْ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٤٢) ط التوفيقية.
(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» [٨٥٩]، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب» [٦٦٠].
(٣) رواه أبو يعلى [٤٢٥٦] وحسنه الألباني في «الصحيحة» [١٧٩٥].

ثانيًا- أفضل عباد الله الحامدون:

خير عباد الله وأحبهم إلى الله الذين يكثرون من عبادته وحمده وشكره والثناء عليه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحامدون**»(١)، فَأَكْثِرْ من حمد ربك في السراء والضراء فإن الحمد خير كله.

ثالثًا- الحمد أفضل الدعاء:

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»(٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فسمى الحمد دعاء وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه(٣).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ**»(٤).

مواطن يتأكد فيها استحباب الحمد

من هذه المواطن: عند الطعام والشراب، عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا رفع مائدته قال: «**الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا**»(٥)، وعن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من**

---

(١) رواه الطبري [٢٥٤] وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [١٥٧١].

(٢) رواه الترمذي [٣٣٨٣] وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» [٢٦٩٤].

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٤) ط العبيكان.

(٤) رواه ابن ماجه [٣٨٠٥] وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٣٠٦٧].

(٥) رواه البخاري برقم [٥٤٥٨].

أكل طعامًا ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ غفر له ما تقدم من ذنبه»[(١)].

ومن هذه المواطن التي يتأكد فيها استحباب الحمد: عند رؤية ما يسره وما يكرهه فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى ما يحب قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، وإذا رأى ما يكره قال: «**الحمد لله على كل حال**»[(٢)].

ومنها: عند رؤية أهل البلاء، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من رأى مبتلىً فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير من خلق تفضيلًا؛ لم يصبه ذلك البلاء**»[(٣)].

ومنها: عند الاستيقاظ من النوم فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استيقظ من النوم قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[(٤)].

ومن هذه المواطن: عند الصباح والمساء فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحت أثني عليك حمدًا وأشهد أن لا إله إلا الله، ثلاثًا، وإذا أمسى فليقل مثل ذلك**»[(٥)].

ومنها: عند وقت السحر من آخر الليل، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا كان في سفر وأسحر يقول: «**سمَّع سامع بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا وَأَفْضِلْ علينا، عائذًا بالله من النار**»[(٦)]، ومعنى «**سمَّع سامع**» أي شهد شاهد على حمدنا لله تعالى على نعمه وحسن بلائه.

(١) رواه أبو داود [٤٠٢٣] وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢/ ٥٠٢).
(٢) رواه ابن ماجه [٣٨٠٣]، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٣٠٨١].
(٣) رواه الترمذي [٣٤٣٢]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٦٢٤٨].
(٤) رواه البخاري [٦٣١٤]..
(٥) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة [٥٧١] وحسنه الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» [١٣٢٠].
(٦) رواه مسلم برقم [٢٧١٨].

ومن هذه المواطن: عند فقد الولد، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟! فيقولون: نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟! فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد**»[(١)]، إلى غير ذلك من المواطن التي يتأكد فيها الحمد ومن أراد المزيد فليراجع كتب الأذكار.

بستان الشاكرين

مع الشاكرين نعيش هذه اللحظات؛ ونذكر من مواقفهم ما يكون قدوة وأسوة، وأول من نبدأ بالحديث عنه إمام المتقين وسيد الشاكرين وصاحب لواء الحمد والشفاعة العظمى يوم الدين؛ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان بحق إمام الشاكرين واستجاب أعظم استجابة لقول ربه عَزَّوَجَلَّ له: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦]، هاهو صلوات ربي وسلامه عليه يصلي الليل ويديم القيام بين يدي ربه حتى تتفطر قدماه شكرًا لربه عَزَّوَجَلَّ، كما في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب ان أكون عبدًا شكورًا؟**»[(٢)].

ومن شدة حرصه على تحقيق الشكر لله وقيامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به كان يدعو الله بذلك، فقد كان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رب اجعلني لك شكَّارًا**»[(٣)]، وكان إذا جاءه أمرٌ يسره خر ساجدًا لله عَزَّوَجَلَّ شاكرًا له سبحانه، فعن أبي بكرة نفيع بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءه أمر سرور أو بشر به خَرَّ ساجدًا شاكرًا لله[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي [١٠٢١]، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١/ ٥٢٠).

(٢) رواه البخاري برقم [٤٨٣٧]، ومسلم برقم [٢٨٢٠].

(٣) رواه أبو داود برقم [١٥١٠]، وابن ماجة برقم [٣٨٣٠]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٣٠٨٨].

(٤) رواه أبو داود برقم [٢٧٧٤]، وابن ماجة برقم [١٣٩٤]، وحسنه الألباني في «المشكاة» [١٤٩٤].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ﴿ صٓ ﴾ وقال: «**سجدها داود توبة ونسجدها شكرًا**»(١)، فسجود الشكر وسجود التلاوة كلاهما مستحب، ولا يشترط لهما الوضوء على الراجح، وصام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صيام شكر اتباعًا لنبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه حينما أنجاه الله تعالى من عدوه فرعون، ففي الصحيحين والمسند واللفظ لأحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأناس من اليهود قد صاموا يوم عاشوراء، فقال: «**ما هذا الصوم؟**» قالوا: هذا اليوم الذي نجَّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق وأغرق فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجوديِّ فصامه نوح وموسى شكرًا لله تعالى فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إننا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم، فأمر أصحابه بالصوم**»(٢).

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استيقظ من نومه حمد الله، وإذا انتهى من طعامه حمد الله تعالى، فكان يقول إذا هبَّ من نومه: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»(٣)، وكان يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردَّ عليّ روحي وأذِن لي بذكره**»(٤).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي**»(٥).

وقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي ليلة في جوف الليل فوقعت يد أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على قدميه وهما منصوبتان وهو يقول في سجوده: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(٦).

---

(١) رواه النسائي (٢/ ١٥٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٣٦٨٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٢٤]، ومسلم برقم [١٢٨]، كلاهما مختصرًا، وأحمد (٢/ ٣٥٩) برقم [٨٧٠٢].

(٣) رواه البخاري برقم [٧٣٩٤].

(٤) رواه أبو داود [٥٠٥٠]، والترمذي [٣٤٠١]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٧١٦].

(٥) رواه مسلم برقم [٢٧١٥].

(٦) رواه مسلم برقم [٤٨٦].

وعلَّم معاذًا الشكر وسؤال الإعانة من الله بعد كل صلاة فقال: «**يا معاذ، إني أحبك، فلا تدع أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفرلي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت**»(٢).

وهذا الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمد الله في صلاته حينما يأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يثبت في مكانه لكي يصلي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا، كما في صحيح البخاري عن سهل ابن سعد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال: أتصلي لنا فأقيم؟ قال: نعم، فصلى أبو بكر، فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس في الصلاة، فتخلَّص حتى وقف في الصف فصفَّق الناس -وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته- فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فرأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأشار إليه رسول الله أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف وتقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلىَّ، فلما انصرف قال: «**يا أبا بكر، ما منعك أن تثبت إذ أمرتك؟**»، فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣)، وكان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها والشكر لك

(١) رواه أبو داود برقم [١٥٢٢]، والنسائي برقم [١٣٠٣]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٩٦٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٧٤٩٩]، ومسلم برقم [٧٦٩].

(٣) رواه البخاري برقم [٦٨٤].

عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسور الأمور كلها لا معسورها يا كريم[١].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ابُتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم: إذا لم يكن في ديني، وإذا لم يكن أعظم، وإذا لم أحرم الرضا به، وإذا أرجو الثواب عليه[٢]، وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأى ذا الثُّدَيَّة في الخوارج أسود مخدج مقطوع اليد عند العضد مثل شكل حلمة ثدي المرأة، وأنه علامة وآية ومصداق وعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي أنه سيقاتل الخوارج وفيهم هذا المخدج، ولما انتهت المعركة أمرهم فبحثوا في جثث القتلى وأخرجوه فبحثوا فلم يجدوه، فَأَصَرَّ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متيقنًا من صدق الموعد فوجدوا كومه من القتلى ووجدوه تحتها، فأخرجوه فإذا هو على صفة ونعت كما وصفه النبي صلوات الله وسلامه عليه فسجد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شكرًا[٣].

وهذا كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما تخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك وهجره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة خمسين يومًا، حتى نزلت توبة الله عليه، يقول كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحدث عن ذلك: فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: ويا كعب بن مالك، أبشر، فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرج[٤].

ولما جاء إلى الحسن البصري خبر موت الحجاج بن يوسف خر ساجدًا شكر لله تعالى، وقال: اللهم قد أمته فأذهب عنا سنته.

---

(١) «عدة الصابرين» ص [١٦٨].

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٢٩٢].

(٣) «المصنف» لعبد الرزاق برقم [٥٩٦٢].

(٤) رواه البخاري برقم [٤٤١٨]، ومسلم برقم [٢٧٦٩].

وكان الحسن البصري يقول: أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال مطرِّف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر أحب إليَّ من أن ابتلى فأصبر.

وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم له ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: مِن شُكر النعمة أن يحدث بها.

وقد ذم الله سبحانه الكَنُود، وهو الذي لا يشكر نِعَمَه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال الحسن: يعد المصائب وينسى النعم[(١)].

يا أيها الظالم في فعله ... والظلم مردود على من ظلم
إلى متى وحتى متى ... تشكو المصيبات وتنس النعم

رأى بكر بن عبد الله المزني حَمَّالًا عليه حمله وهو يقول: الحمد لله، أستغفر الله قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيرًا كثيرًا أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفره لذنوبي فقلت: الحمال أفقه من بكر!

وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله فيها ثلاث نعم؛ ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت.

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك من أن أُبَدِّل نعمتك كفرًا، وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثني بها.

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» ص [١٥٦-١٥٧].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي قال: كنت أسمع جارًا لي يقول في الليل: يا إلهي خيرك عليَّ نازل وشري إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك مني بعمل قبيح، وأنت مع غِناك عني تتحبب إليّ بالنعم، وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتمقت إليك بالمعاصي، وأنت في ذلك تجبرني وتسترني وترزقني.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون.

قال يونس بن عبيد: قال رجل لأبي تميمة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين: ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي.

وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله، اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كبتَّ عدونا، وبسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا، في قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، أو حي أو ميت، أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وكتب ابن السَّمَّاك إلى محمد بن الحسن حين وَلِيَ القضاء بالرَّقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق.

ومر الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: مايبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذي أبكاني.

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس: أيسرك ببصرك مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا ، قال: فذَّكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئات الألوف وأنت تشكو الحاجة[1].

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده فإذا هو يَئِنُّ فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق اذكري من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

قال بكر بن عبد الله: قلت لأخ لي: أوصني فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد، والشكر ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار.

وقال عبد العزيز بن أبي رواد: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ما شق عليَّ منها قال لي: أترى ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي، ولا طرف لساني ولا على طرف ذَكَرِي، فهانت عليَّ قرحته.

وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة في دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهي جارية علينا فيما بقي فإنها منك وحدك لا شريك لك،

(١) «عدة الصابرين» بانتقاء واختصار ص [١٦٠-١٦٨].

فلك الحمد بذلك علينا، ولك المن ولك الفضل ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك، لا إله إلا أنت.

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر، أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر؟!

وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانًا: أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي موَّلْتَه فلك الحمد، وأنا الأعزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا.

قال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

وحبس السلطان رجلًا فأرسل إليه صاحبه: اشكر الله، فضُرب فأرسل إليه: اشكر الله فجيء بمحبوس مجوسي مبطون فقُيِّد وجعل حلقة من قيدة في رجله، وحلقة في رجل المذكور فكان المجوسي يقوم بالليل مرات، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ فكتب إليه صاحبه: اشكر الله فقال له: إلى متى تقول: اشكر الله وأي بلاء فوق هذا؟! فقال: لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع؟! فاشكر الله.

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعي فقال: اشكر الله فلو دخل اللص قلبك -وهو الشيطان- وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع؟[1].

(١) المصدر السابق ص [١٧٤-١٩٠].

معرفة النعم

مما يستجلب الشكر ويدعو إليه أن يفكر العبد ويتأمل في عظمة وكثرة نعم الله عليه، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، فالله هو الذي خلقك وأوجدك من عدم، وخلق لك عقلًا لتعقل وقلبًا لتفهم وتؤمن، وخلق لك سمعًا وبصرًا ولسانًا وغير ذلك من الجوارح، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠]، وسخر الله لك كل ما في هذا الكون، فأنزل من السماء ماء، وأنبت من الأرض نباتًا تأكل منه، وسخر لك الأنعام لتركبها ولتأكل من لحومها وألبانها، وسخر البحر يحمل السفن ويستخرج منه الأسماك واللؤلؤ وغير ذلك من المنافع، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، وآتاك الله بيتًا تسكنه، وزوجة تسكن إليها، وطمأنينة في بيتك، وصحة في بدنك وغيرك حُرم من كل هذا، ألا تشكر ربك الذي وهبك وأعطاك؟! قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾ [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل: ٧٢].

إنك لو فكرت في حجم النعم التي أنعم الله بها عليك لطاش عقلك، أستغفر الله بل لأذعن عقلك بالعبودية والذل لمن له كل الفضل عليك، وما بك من خير ونعمة وحياة

فهي منه سبحانه وبحمده، تأمل نعمة الهواء لو كان الهواء يباع كيف يكون الحال؟!

تأمل في نعمة المياه لو انعدمت من حياتك كيف تكون؟! قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وأعظم النعم وأجلها وأكبرها نعمة الإيمان فلقد هداك ربك وجعلك موحدًا مسلمًا وغيرك غارق في أوحال الكفر وقذارة الشرك، كم من الناس ضلوا عن الحق وعموا عنه، فمن يهود ونصارى وملحدين وزنادقة وبوذيين وغير ذلك من الطوائف التي حادت عن نور الإسلام وهم في الآخرة من الخاسرين، الذين لا يخرجون من نار الجحيم، انظر كم أنعم عليك ربك وهداك من كل هذا الضلال وعرَّفك طريق الجنة وسبيل السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ثم انظر كيف سلَّمك ربك من البدع في الدين والانحرافات في العقيدة، فلست رافضيًا، ولا معتزليًا، ولا خارجيًا، ولا تنتمي إلى غير ذلك من فرق المبتدعة الذين ضلوا عن سواء السبيل، فاللهم لك الحمد على ما هديتنا ولك الحمد على ما أنعمت به علينا، ولك الحمد على ما منحتنا من سابغ فضلك وواسع كرمك وعظيم جودك، ولك الحمد ربنا على حمدنا لك.

ما يُرغِّب في الشكر ويؤدي إليه

مما يستجلب الشكر ويدفع العبد إليه ويجعله له حالًا دائمًا مطالعة النعم وتعدادها وتذكرها دائمًا، ومن ذلك النظر إلى أهل البلاء فمن نظر إلى المرضى وشدة آلامهم وطول أنينهم عرف نعمة الصحة وشكرها، ومن تأمل في حال المسجونين والمدينين عرف نعمة الحرية والسلامة من الديون وشكر الله على ذلك، ومن رأى كفيفًا لا يرى أو أشل لا يتحرك أو عقيمًا لا يلد أو والدًا عقه ولده أو بيتًا تمزقت أواصر أهله وتشرد أفراده عرف نعم الله في كل ذلك وشكرها.

ومن ذلك أن ينظر إلى من هو دونه وأقل منه في الدنيا فإن ذلك جدير بتعظيم النعمة ومعرفة قدرها والحذر من مَلَالِها، فإن ملال النعم مؤذن بزوالها عياذًا بالله، ولقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله**»(١).

ومن ذلك أن يعلم العبد أنه مسئول بين يدي ربه يوم القيامة عن هذه النعم ومحاسب عليها، فإذا علم ذلك قام بالشكر مخافة أن يحاسب، وقد قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، ومن ذلك معرفة فضائل الشكر، وأنه سبيل لزيادة النعم وحفظها وحراستها وغير ذلك مما تقدم ذكره، فاللهم يا ربنا زدنا من نعمك ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وألهمنا شكر نعمتك ودوام ذكرك.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري برقم [٦٤٩٠]، ومسلم برقم [٢٩٦٣].

الخاتمة

أي أخي، ليس للعبد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، يا منفقًا بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه ليس في أعدائك أضر عليك من نفسك.

العمر بآخره والعمل بخاتمته، من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه.

لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها، ولا يعزها بمثل ذلها، ولا يريحها بمثل تعبها، ولا يشبعها بمثل جوعها، ولا يؤمنها بمثل خوفها، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها[1].

أي أخي! من اجتهد وَجَدَّ وَجَدَ، وليس من سهر كمن رقد، والفضائل تحتاج إلى وثبة أسد.

إذا القرشي لم يشبه قريشًا ... بفعلهم الذي بزَّ الفعالا

فتيسٌ من تيوس بني تميم ... بذي العبلات أحسن منه حالا

قيمتك عملك فهيا، وقدرك بقدر ما قدمت لدينك، مكانتك عند ربك على قدر تعظيمك له ونصرتك لدينه وشرعه، ليس الكلام ولا الألقاب تغني عنك شيئًا، وإنما العمل هو كنزك ورصيدك الذي تلقى به ربك، كُفَّ لسانك، وابدأ في مجاهدة نفسك وإصلاحها واستعن بالله، واصدق مع الله، فالله أكرم من أن يخيب من قصده أو أن يرد من دعاه، فاصدق في عبوديتك لربك ودع عنك مدح الناس أو ذمهم أو ما خلعوه عليك من ألقاب فإنها لن تفيدك شيئًا.

---

(١) من كلام ابن القيم في «الفوائد».

والمسك ما قد شفا عنه ذاته لا ماغدا ينعته بائعه

إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه وجعل في قلوبهم وده وحبه، وإذا صدق العبد في عمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته أثناء عمله، وعاقبته وثمرته عند لقاء ربه، فهيا تزود من الآن لهذا السفر البعيد الذي سيكون منتهاه إما إلى جنة وإما إلى نار، ولكل من الدارين وارد، فعلى أيهما ورودك ولأيهما تعمل؟! اتعب اليوم في طاعة ربك واثبت لتجني ثمرة عملك في الآخرة، حقق العبودية لربك تعش حياتك سعيدًا حميدًا، ويكون مآلك جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

تعال نعاهد ربنا على أن نصدق في العبودية له وأن نقلع عن كل ما لا يرضيه من ذنب وإثم وخلق ذميم.

هيا هيا، ارحل عن الأكوان إلى خالقها، إياك أن تشغلك العوائق والخلائق عن الخالق جَلَّجَلَالُهُ.

إنك إن اشتغلت بنفسك عن الله حُجِبْتَ، وإن أتبعت نفسك هواها طُرِدْت، وإن هذبتها وزكيتها بطاعة ربك قُرِّبْتَ ووجدت قرة العين ولذة الروح وطيب العيش وطمأنينة القلب وراحة الضمير ونعيم الحياة، فهيا أقبل، ما يمنعك؟!

أكثر من الذكر والاستغفار يغفر ذنبك ويزداد رزقك ويصلح حالك، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وبالاستغفار ترحم، قال تعالى: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦]، الاستغفار يزيدك قوة في بدنك، قال هود لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢].

الاستغفار أمان لك من العذاب فاستغفر الله تنج من عذابه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأكثر من ذكر الله في كل وقت وفي كل حين، في سفرك وحضرك، في صحتك ومرضك، في فراغك وشغلك، وفي طريقك إلى عملك، فالفلاح كل الفلاح في كثرة ذكر الله بالقلب واللسان، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وإذا ذكرت الله ذكرك ويا لها والله من كرامة، الله جَلَّجَلَالُهُ يذكرك إذا ذكرته، قال الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأكثر من النوافل من صلاة وصيام وعمرة فإنها سبيل حب الله لك، وإذا أحبك ربك فقد سعدت السعادة الخالدة في الدنيا والآخرة، جالس العلماء والصالحين واستفد من هديهم قبل لفظهم، واحترس من مجالسة أرباب الغفلة فإن الطباع تسرق وأنت لا تدري، إن مخالطة الغافلين سقم القلب وحمى الروح، والسلامة أسلم.

احترس من المعاصي واصبر عنها في الدنيا فإن الراحة العظمى في الجنة، ليكن شعارك في هذه الدار: إلهي إذا تشاغل الناس عنك بدنياهم فإن كل همتي مرضاتك، وكل بغيتي جنتك والنظر إلى وجهك الكريم، لله در أقوام عقلوا معنى الحياة وفهموا مراد الله فعاشوا حياتهم كل حياتهم طاعة لربهم، وكان حالهم كما قال القائل:

عزفوا القلوب عن الشواغل كلها ... قد فرغوها من سوى الرحمن

حركاتهم وهمومهم وعزومهم ... لله لا للخلق والشيطان

أيها العاقل قم من رقدتك، وانهض من غفلتك، وأنفق نفسك وأنفاسك قربة لربك جَلَّجَلَالُهُ فليست الدنيا بدار مقام، وكل لذاتها خدع وأوهام، هيا لتكن كل همتك بلوغ دار السلام، تزود بالتقوى فإنها خير زاد تلقى به ربك جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

اللهـم خـذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا، وتقبل أعمالنا منا، وعلى طاعتك أعنا ومن شرور خلقـك سـلمنا، رب كـن لنـا ولا تكن علينا، امكـر لنا ولا تمكر بنـا، اهدنا ويسر الهدى لنا.

اللهـم حبب إلينا الإيمان وزينـه في قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكفر والفسـوق والعصيان، واجعلنـا مـن الراشـدين، اللهم يـا مصرف القلـوب صرف قلوبنـا إلى طاعتـك، اللهم اغفـر لنـا ذنوبنا وكفر عنا سـيئاتنا وتوفنا مع الأبـرار ، اللهم طهِّر قلوبنا، وزكِّ نفوسـنا، وحَصِّـن فروجنا، واسـلل سـخيمة صدورنا، اللهـم إنا نعوذ بك من علـم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها، اللهم استر عيوبنا، وسدد ألسـنتنا، وامح خطيئتنا، وارفع درجتنا، وتولَّ أمرنا وأحسن خلاصنا، واختم بالباقيات الصالحات أعمالنا، ولا تتوفنا إلا وأنت راضٍ عنا.

اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا عليه حتى نلقاك به، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾.

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وصلِّ الله وسلم وبارك على النبي محمد وآله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁